(٢٩) معروف الكرخي[١]

ذكر أبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي قدّس الله سرّه:

كان رحمه الله مُقتدى أهلِ الطريقة، ومقدّمَ الطائفة، وسيدَ المحبّين في وقته، وخلاصةَ العارفين في عهده؛ بل لو لم يكن عارفًا لم يكن معروفًا.

وله رياضاتٌ كثيرة، وكان في الفتوّةِ والتقوى آيةً، وله حزنٌ دائم، والشوقُ في مقام الأُنس غالبٌ عليه.

أقول: قيل: كان من المشايخ الكبار، مُستجابَ الدعوة، يُستشفى بقبره، وقال البغداديون: قبرُ معروف ترياقٌ مجرَّبٌ.

وهو من موالي علي بن موسى الرضا رضي الله عنه.

مات سنة مئتين، وقيل: إحدى ومئتين.

وكان أستاذًا لسري السقطي رحمه الله. والله أعلم.

قال أبو علي الدقّاق: كان معروف أبواه نصرانيين، فسلَّما معروفًا إلى مؤدِّبهم وهو صبيٌّ، وكان المؤدِّبُ يقول له: قل ثالث ثلاثة. ويقول معروف: بل هو الواحد. فضربه المؤدِّبُ يومًا ضربًا شديدًا، فهرب معروفٌ، وكان أبواه

---

(١) ثقات ابن حبان ٩/ ٢٠٦، طبقات الصوفية ٨٣، حلية الأولياء ٨/ ٣٦٠، تاريخ بغداد ١٣/ ١٩٩، الرسالة القشيرية ٤١، طبقات الحنابلة ١/ ٣٨١، الأنساب ١٠/ ٣٨٩، صفة الصّفوة ٢/ ٣١٨، مناقب الأبرار ١٠٩، المختار من مناقب الأخيار ٥/ ٣٦، وفيات الأعيان ٥/ ٢٣١، سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٣٩، دول الإسلام ١/ ١٢٦، العبر ١/ ٣٣٥، مرآة الجنان ١/ ٤٦٠، طبقات الأولياء ٢٨٠، نفحات الأنس ٥٦، طبقات الشعراني ١/ ٧٢، الكواكب الدرية ١/ ٧١٥، شذرات الذهب ١/ ٣٦٠. وفي مجلة المورد العراقية المجلد ٩/ العدد ٤ صفحة ٦٠٩ كتاب ابن الجوزي: مناقب معروف الكرخي.

يقولان[١]: ليته يرجع إلينا على أيِّ دينٍ شاء، فنوافقه. ثم إنه أَسلمَ على يدي علي بن موسى الرضا رضي الله عنهما، ورجع إلى منزله، ودقَّ الباب، فقيل: من على الباب؟ قال: معروف. فقالوا: علي أيِّ دين؟ فقال: على الدين الحنفي. فأسلم أبواه.

ثم وصل إلى داود الطائي رحمه الله، وحظي في الصدق إلى أن صارَ مُشارًا إليه في وقته.

قال محمد بن منصور الطوسي: كنتُ عند معروف ببغداد، فرأيتُ يومًا على وجهه أثرَ جراحةٍ، قلت له: أمس كنتُ عندك، وما رأيتُ هذا الأثر على وجهك، فما هذا اليوم؟ قال: لا تسأل شيئًا لا حاجةَ لك به، واسألْ عن شيءٍ ينفعُكَ. قلتُ: بحقِّ المعبود، أخبرني عن هذا. قال: كنتُ في الصلاةِ أمس، ثم أردتُ أن أذهبَ إلى الكعبة وأطوف، ففعلت ذلك، ثم مضيتُ إلى زمزم لأشربَ منها الماء، فزلقتْ رجلي، ووقعتُ، وانجرح وجهي، وهذا علامته.

نقل أنه مضى يومًا إلى دجلة ليتوضَّأَ، وترك المُصلّى والمصحف في المسجد، فدخلت عجوزةٌ وأخذتهما وذهبت، فجاء معروفٌ وتبعها إلى أن وصل إليها، وأطرقَ رأسَه من الحياء لئلا ينظرَ إليها، وقال: هل لك ابنٌ يقرأُ القرآن؟ قالت: لا. فقال معروف: المُصلّى لك حلال، فاعطني المصحف. فتعجَّبتِ المرأةُ من غاية حلمِ معروف، وخجلتْ ووضعتْ كليهما بين يدي معروف، وهو يقول: المُصلّى لك حلال. والمرأة من غايةِ الخجل تركتْ ومضت بالعجل.

نقل أنه يومًا يمرُّ مع جماعةٍ بساحل دجلة، وجماعةٌ من الشبان كانوا في زورقٍ على دجلة يشربون الخمر، ويَضربون الرَّباب، ويُجاهرون بالفسق، فقال الأصحابُ لمعروف: يا شيخ، ادعُ الله عليهم؛ لعلَّه يُهلكُهم بالغرق، لئلا يصلَ شؤمُهم إلى الخلائق، وينقطع عن الناس فسقُهم. فقال: ارفعوا أيديكم. فلمّا

---

(١) في (ب): معروف، وقال أبواه: ليته.

رفعوا، قال: إلهي، كما طيَّبتَ عيشَهم في الدنيا، فطيِّبْ كذلك عيشهم في الآخرة. فتعجَّبَ الأصحاب عن هذا الأمر، وقالوا: يا شيخ نحن لا نبلغُ إلى سرِّ هذا الدعاء. قال: توقَّفوا ليتبيَّنَ لكم الأمر. فلمّا رأى جماعةُ الشبانِ الشيخَ، كسروا الرباب، وأَراقوا الخمر، ووقعوا في البكاء، وجاؤوا إليه مُسرعين، وتابوا، فقال الشيخ: انظروا إلى هذا الشأن البديع، حصل مراد الجميع بلا غرق.

نقل عن الشيخ السريِّ السَّقطي رحمه الله، أنه قال: رأيتُ معروفًا يوم عيدٍ يدور، ويلتقطُ من الأرض نوى التمر، فقلت: ماذا تفعل؟ قال: رأيتُ هذا الطفل يبكي، فسألتُه عن بكائه، وقال: لا أبَ لي ولا أمَّ، وسائرُ الصبيان لهم ثيابٌ جديد، ومالي ثيابٌ، ولهم جوزٌ يلعبون به، ومالي جوز ألعب به، فإنّي ألتقطُ هذه النوى لأبيعها، وأشتري بثمنها له جوزًا ليلعب به. فقال السري: قلت: أنا أكفي لك هذا الشُّغلَ، واجعلْ قلبَكَ فارغًا من هذا الأمر. وذهبت بالصبيِّ، وألبستُهُ ثوبًا جديدًا، واشتريت له الجوز، فلمّا رجعتُ وجدت في قلبي نورًا في الحال، وتغيَّرَت عليَّ الأحوال.

نقل أنه كان له خالٌ، وكان واليًا في المدينة، فمرَّ يومًا في موضعِ خرابٍ، رأى معروفًا جالسًا وفي جنبه كلبٌ، ويأكلُ الخبزَ، فيأكلُ هو لقمةً ويضعُ لقمةً في فم الكلب، فقال له خاله: لا تستحي تأكل مع الكلب؟ فرفع رأسَه، ورأى طيرًا يطيرُ، فدعاه، فجاء إليه، ووقع على يده، ويستر بجناحه وجهه، فقال معروف: أما تعلم أنَّ من يَستحيي من الله، يستحيي منه كلُّ شيء. فخجلَ خالُهُ عن هذا الحال، وتعجَّب ورجع.

نقل أنه انتقض وضوؤُه في بعض الطريق في بعض الأيام، فتيمَّمَ في الحال، فقالوا: هذه دجلة، وأنت تتيمَّمُ! قال: نعم، ولكن يمكن أن لا أعيشَ إلى أن أصلَ إليها.

نقل أنه نوبةً غلبَ عليه الشوقُ، فقام واعتنقَ ساريةً كانت هناك، حتى كادت السارية تتقطّعُ وتتمزّق.

وله كلماتٌ عاليةٌ، منها أنه قال: علامةُ الفتوة ثلاثةُ أشياء: وفاءٌ بلا خلاف، وشكرٌ[1] بلا غفلة، وعطاءٌ بلا سؤال.

علامة الأولياء ثلاثةٌ: تكون أفكارهم في الله، واطمئنانُهم بالله، وشغلُهم لله.

و: إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا فتحَ عليه بابَ العمل، وأغلقَ عليه بابَ الكلام.

حديثُ المِراء فيما يجد به علامة الخذلان، وإذا أرادَ اللهُ بشخصٍ خيرًا، يكونُ بخلافه. يعني: يسكتُ، أو يتكلّمُ فيما ينفعه.

قال: حقيقةُ الوفاء الإفاقةُ عن نوم الغفلةِ، وفراغُ الفكر عن وصول الآفة.

و: إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا، فتحَ له باب العمل، وأغلقَ عليه باب الكسل.

طلبُ الجنَّةِ بلا عملٍ ذنب.

و: انتظارُ الشفاعة بلا متابعةِ السنة نوعٌ من الغرور.

و: ارتجاءُ الرحمة مع العصيان جهلٌ وحماقة.

قيل له: ما التصوف؟ قال الأخذُ بالحقائق، واليأسُ عمّا في أيدي الناس.

من عشقَ الرئاسة، لا يُفلح أبدًا.

أعلمُ طريقًا إلى الله تعالى، وهو أن لا تسألَ عن أحدٍ شيئًا، ولا يكون لك شيءٌ ليُسأل عنك.

و: احفظوا ألسنتَكُم عن مدائح الناس، كما تحفظونها عن المذمّة.

قيل له: نحن بم نجدُ يدًا على الطاعة؟ قال: بترك الدنيا، وإخراجِها عن القلب.

سئل عن المحبة، قال: ليستِ المحبةُ عن تعليم الخلق؛ وإنّما هي عن مذهبه الحق.

---

(١) في (ب): نقل أن له كلمات عالية، منها أنه قال: علامة المحبِّ ثلاثة أشياء، وفاء بلا خلاف وشغل بلا غفلة.

و: لو لم يكن للعارف شيءٌ، فهو في النعمة.

وكان يأكلُ يومًا من الأيام طعامًا لذيذًا، فقيل له في ذلك، فقال: أنا ضيفٌ، ما يُطعموني أطعم.

وكان يقول يومًا للنفس: اتركيني لتخلصي أنت.

استنصح منه رجلٌ، فقال: توكّلْ على الله، ليكونَ أنيسَك، وهو مرجعُك لتشتكي إليه، فإنَّ الخلائق كلَّهم لا يقدرون أن يوصلوا إليك منفعةً، ولا يَدفعون عنك مضرّةً، وإذا التمستَ شيئًا فالتمسْ ممّن لديه جميعُ الدواء.

واستوصى منه شخص قال: احذر من أن يراك الحقُّ، وأنت لا تكون في زِيِّ المساكين.

أقول: ومن دعاء النبي ﷺ: «اللهم أَحيني مسكينًا، وأَمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين» وما أعظم منزلة المسكنة، والنبيُّ ﷺ يدعو الله تعالى أن يرزقَهُ المسكنةَ في الحياة والممات، ويحشرَهُ في زمرة المساكين، حيث قال: «واحشرني في زمرة المساكين»[1] ولم يقل: واحشرِ المساكين في زمرتي. والله أعلم.

قال السري السقطي: أوصاني معروف، وقال: قبل أن أموتَ اخلعْ قميصي، وتصدَّقْ به على فقير؛ فإنّي أُريدُ أن أخرجَ من الدنيا بلا شيءٍ عاريًا كما أنّي دخلتُها كذلك.

نقل أنه رحمه الله كان صائمًا، واتّفقَ له مرورٌ بالسوق مع جماعةٍ من أصحابه، فاستقبله سقّاءٌ وهو يقول: رحم الله من شرب. فأخذ الشيخُ وشرب، فقيل: أما كنتَ صائمًا؟! قال: نعم، ولكن رجوتُ الرحمةَ ببركة دعائه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٥٢) في الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧/ ١١١، وابن ماجه (٤١٢٦) في الزهد، باب مجالسة الفقراء، والبيهقي في سننه ٧/ ١٢ في الصدقات، باب ما يستدل به على أن الفقير أمس حاجة من المسكين، وشعب الإيمان ٢/ ١٦٧، ٧/ ٣٤٠.

ورآه شخصٌ بعد الوفاة، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني ببركة العاشقين.

قال محمد بن الحسن: رأيتُهُ في المنام، قلت: ماذا فعل الله بك؟ قال: رحمني. قلت: بورعك وزهدك؟ قال: لا، ولكن بقبول كلامٍ واحدٍ عن ابن السمّاك، قال: كنت مارًّا بالكوفة، فوقفتُ على رجلٍ يقال له ابنُ السماك، وهو يعظُ الناس، فقال في خلال كلامه: من أعرضَ عن الله بكلّيته أعرضَ الله عنه جملةً، ومن أقبلَ على الله بقلبه أقبلَ الله إليه برحمته، وأقبلَ بجميع وجوه الخلق إليه، ومن كان مرَّةً مرَّةً فالله تعالى يرحمُهُ وقتًا ما. فوقع كلامُه في قلبي، وأقبلتُ على الله، وتركتُ جميعَ ما كنتُ عليه إلاّ خدمة مولاي عليِّ بن موسى الرضا رضي الله عنهما، وذكرت هذا الكلام لمولاي، فقال رضي الله عنه: يكفيك بهذا من عظةٍ[1] إنِ اتَّعظت.

وقال السريُّ السقطي: رأيت معروفًا الكرخي رحمه الله في المنام، كأنَّهُ تحت العرش، ويقول الله تعالى لملائكته: من هذا؟ يقولون: أنت أعلم يا ربُّ. فيقول: هذا معروف الكرخي، سكرَ من حبّي، فلا يفيقُ إلاّ بلقائي.

اللهم ارزقنا بكرمك لذَّةَ النظر إلى وجهك الكريم، ولا تخيِّبنا عن ألطافك وإحسانك يا رحيم، وطهّرْ قلوبنا عن هواجس النفس يا عظيم.

* * *

(١) في (أ): يكفيك بهذا من موعظة.